شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٤٣

الإيمان بين المرجئة والخوارج

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

الإيمان بين المرجئة والخوارج [1] ١

- مفهم الإيمان ٢
- الإيمان عند أهل السنة والجماعة ٧
- دائرة التقليد في الإيمان ٨
- العمل الذي يتحقق به الإيمان ١٠
- سلامة الإيمان من نواقضه ١١
- مفهوم الإيمان عند الخوارج والمرجئة ١٣
- مراتب الإيمان ١٤
- أعلى مراتب الإيمان ١٥
- أضعف مراتب الإيمان ١٥
- خروج الخوارج على الحاكم ١٦
- تعاظم الأعمال ١٧

[1]) رابط الحلقة http://www.youtube.com/watch?v=SjxClKvktzI

مفهوم الإيمان

يطلق الإيمان في الكتاب والسنة بإطلاقات متعددة ومجملها يندرج تحت مفهومي الإيمان العام والإيمان الخاص .

والإيمان العام هو ما كان شامل لأحكام الدين ظاهرًا وباطنًا ويؤيد ذلك ما جاء (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ)[٢] فجعل النبي ﷺ الإيمان شاملا لجميع الأعمال الظاهرة والباطنة .

وهذا المفهوم مرادف للإسلام وكذلك الدين كما في قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ (سورة المائدة :٣) .

وجعل الله تعالى الإيمان بمسمى الدين فيقال رجل مؤمن ورجل كافر ولهذا يقول تعالى﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (التغابن:٢) أي : هو الخالق سبحانه فجعل الناس على فريقين المسلمين والكفار ، وهذا الإطلاق من المعاني التي يطلقها الله تعالى في كتابه بمعنى الإيمان .

والمعنى الخاص هو ما كان باطنًا في عمل الإنسان وهذا يدل عليه ما جاء في حديث جبريل (عَنْ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بينما نحن عند رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إِلَى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فأسند ركبتيه إِلَى ركبتيه ووضع كفيه عَلَى فخذيه وقَالَ: يا محمد

٢) رواه البخاري ح (٩)، ومسلم ح (٣٥)، واللفظ له.

أخبرني عَنْ الإسلام؟ فقَالَ رَسُول اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّم: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللهُّ وأن محمدا رَسُول اللهِّ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا" قَالَ صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه! قَالَ: فأخبرني عَنْ الإيمان؟ قَالَ: "أن تؤمن باللهِّ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ وتؤمن بالقدر خيره وشره" قَالَ صدقت قَالَ: فأخبرني عَنْ الإحسان؟ قَالَ: "أن تعبد اللهَّ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" قَالَ: فأخبرني عَنْ الساعة؟ قَالَ: "ما المسئول عَنْها بأعلم مِنْ السائل" قَالَ: فأخبرني عَنْ أماراتها؟ قَالَ: "أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان!" ثم انطلق فلبثت مليا ثم قَالَ: "يا عمر أتدري مِنْ السائل؟" قلت : اللهَّ ورسوله أعلم. قَالَ: "فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[٣] .

فجعل الإسلام في الأعمال الظاهرة والإيمان في الأمور الباطنة عند وجود الإسلام وأما إذا اجتمعا فيفترقان بحسب ما ينزل الشارع عليهما من معاني .

وأما من جهة لغة العرب فالمراد بالإيمان هو القرار والطمأنينة ويشترك فيه مع المعنى الشرعي لأن الإيمان في الشريعة من ظواهر الأدلة من الكتاب والسنة هو الإقرار الجازم والتصديق الثابت بأن الله واحد في ذاته وألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وأنه مستحق وحده ذلك لا شبيه له ولا استحقاق لغيره في ذلك .

فيشترك المعنى اللغوي وهو الإقرار والطمأنينة مع المعنى الشرعي وفيه دلالة على مقاصد الشريعة وفيه إخراج على بعض ما يتوهمه البعض أن الإيمان هو التصديق القلبي فقط فهذا من المعاني الخاطئة فإن نصوص الشريعة وظواهر كلام العرب أنهم لا يجعلون الإيمان رديف التصديق وذلك أن التصديق ضد الكفر ، وأما الإيمان فهو مشتق من الأمان ، والأمان هو الذي يكون فيه قرار وطمأنينة وانقياد ظاهر وباطن .

ولهذا يقول العلماء إن الإيمان قول وعمل واعتقاد أو الإيمان قول وعمل وهذا من المترادفات في هذا الباب لقصدها الباطن والظاهر .

٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، حديث: ٨.

وعليه فإن الإيمان هو القرار والطمأنينة وهو شامل للانقياد والتصديق وأما جعل الإيمان التصديق المجرد فهذا ربما يحمل على بعض المعاني التي يجري عليها بعض أهل المخالفات وإن كان من معانى الإيمان التصديق كما في كلام العرب في بعض المواضع .

الإيمان عند أهل السنة والجماعة

المراد بالإيمان عند أهل السنة والجماعة هو ما جاء في كتاب الله تعالى وما كان عليه النبي ﷺ وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين .

هو الانقياد في الظاهر والتصديق في الباطن بما أخبر به الله وهذا ما يجمله العلماء (أن الإيمان هو قول وعمل) أو (قول وعمل واعتقاد) .

وكذلك شامل للظاهر من ظواهر الإنسان مما ظهر منه سواء كان بقول لسانه وقول اللسان يطلق عليه الفعل فيقال ماذا فعل فلان فيقال قال كذا وهذا ظاهر في لغة العرب كما في قوله تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (الأنعام :١١٢) فسماه الله قولا ثم سماه فعلا وهذا يدل على أن القول يسمى بالفعل ولكن اختلفوا في إطلاق العمل على القول وقد يصدق عليه من جهة التجوز وأما عمل الأركان فهي الأعمال والأفعال وهي محل اتفاق.

ومعنى الإيمان في الشريعة شامل لجميع الأعمال الظاهرة والباطنة التي يصدرها الإنسان ولكن إذا انتفى شيء من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة فلا ينفي الإيمان .

وثمة لوازم من جهة تحقق الإيمان وثمة لوازم من جهة زيادة الإيمان والنقصان .

للإيمان أصل إذا وجد هذا الاصل فلا ينتفي إلا بناقض من نواقض الإيمان وأما الزيادة في العمل الصالح تعتبر زيادة في الإيمان ونقصان العمل الصالح نقصان الإيمان ، وهذا ما يسمى بفعل

الطاعات التي تشمل الواجبات والمستحبات وضدها الكبائر والموبقات ويدخل في ذلك أبواب المعاصي والصغائر واللمم والمكروهات فإذا تركها الإنسان احتسابا زاد إيمانه وإذا فعلها نقص إيمانه ولكن لا يزيل الإيمان إلا بناقض من نواقض الإيمان .

كيفية تحقق الإيمان

من المعاني المهمة كيفية معرفة الإنسان تحقق الحد الأدنى للإيمان وأصله الذي ينجو به من النار .

أهل السنة والسلف الصالح وسط في ذلك فلا يكفرون بالكبيرة كالخوارج ولا يرون أنه لا يضر مع الإيمان معصية وذنب كالمرجئة .

والإنسان إما كافر وإما مسلم ، بالنسبة للكافر فبحسب كفره وجب عليه أن يكفر بالكفر الذي كان عليه قبل الإسلام ويقرن ذلك بالنطق بالشهادتين (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) فإذا كان نصرانيا ويؤمن بأن عيسى ابن الله تعالى الله عن ذلك أو ممن يقول إن العزير ابن الله كحال اليهود فيجب عليه أن ينفي ذلك وأن يقول أن عيسى عبد الله ورسوله ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ولو تضمن النطق بالشهادة فدخل في الإسلام وكان من أهل الإسلام وهذا ظاهر في قول النبي ﷺ كما جاء من حديث أبي هريرة قال ﷺ (أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النّاس حتّى يشْهدُوا أنْ لا إله إلّا اللهُ، وأنّ مُحمّدًا رسُولُ اللهّ، ويُقِيمُوا الصّلاة، ويُؤْتُوا الزّكاة، فإذا فعلُوا ذلِك عصمُوا مِنّي دِماءهُمْ وأمْوالهُمْ إلّا بِحقِّ الإسْلامِ، وحِسابُهُمْ على اللهّ)[٤] .

وكذلك من حديث جبريل (سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، قَالَ : بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ فِي أُنَاسٍ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا رَجُلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ سَحْنَاءُ سَفَرٍ وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ يَتَخَطَّى ، حَتَّى وَرَّكَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا يَجْلِسُ أَحَدُنَا فِي الصَّلاةِ ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُكْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، مَا الإِسْلامُ ؟ قَالَ : " الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ

٤) رواه البخاري برقم: ٢٤، كتاب (الإيمان)، ومسلم برقم: ٣٣، كتاب (الإيمان).

اللهَّ ، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَحُجَّ وَتَعْتَمِرَ ، وَتَغْتَسِلَ مِنَ الْجَنَابَةِ وَتُتِمَّ الْوُضُوءَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ " قَالَ : فَإِنْ فَعَلْتُ هَذَا ، فَأَنَا مُسْلِمٌ ؟ قَالَ : " نَعَمْ " قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ : " أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهَّ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْمِيزَانِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ " قَالَ : فَإِذَا فَعَلْتُ هَذَا فَأَنَا مُؤْمِنٌ ؟ قَالَ : " نَعَمْ " قَالَ : صَدَقْتَ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، مَا الإِحْسَانُ ؟ قَالَ : " أَنْ تَعْمَلَ للهَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لا تَرَاهُ ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ " قَالَ : فَإِذَا فَعَلْتُ هَذَا فَأَنَا مُحْسِنٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ : فَمَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : " سُبْحَانَ اللهَّ ، مَا الْمَسْئُولُ بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ " قَالَ : " إِنْ شِئْتَ أَتَيْتُكَ بِأَشْرَاطِهَا " قَالَ : أَجَلْ ، قَالَ : " إِذَا رَأَيْتَ الْعَالَةَ الْعُرَاةَ الْحُفَاةَ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبِنَاءِ وَكَانُوا مُلُوكًا ، قَالَ : مَا الْعَالَةُ الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ ؟ قَالَ : " الْعَرِيبُ " . قَالَ : " فَإِذَا رَأَيْتَ الأَمَةَ تَلِدُ رَبَّهَا وَرَبَّتَهَا فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ " قَالَ : صَدَقْتَ ، ثُمَّ نَهَضَ فَوَلَّى ، قَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَلِيَّ بِالرَّجُلِ . قَالَ : فَطَلَبْنَاهُ فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَتَدْرُونَ مَنْ هَذَا ؟ هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ ، فَخُذُوا عَنْهُ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا تَشَبَّهَ عَلِيَّ فَقَدْ أَتَانِي قَبْلَ مَرَّتِي هَذِهِ ، وَمَا عَرَفْتُهُ حَتَّى وَلَّى ")[٥] .

وهذا بالنسبة لدخول الكافر في الإسلام وخروجه من الكفر .

وأما المسلم فالإيمان كحال الجذوة من القبس من النار ونحوها فإذا لم يكن ثمة اشتعال بالعمل الصالح لابد أن تنطفأ .

فمن نطق بالشهادة ابتداءً استحق وصف الإسلام ولكن لا يثبت إيمانه إلا بالعمل الظاهر والباطن المحبة والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة بالله والاستغاثة وغير ذلك من عمل القلب .

ولهذا ربما يكفر الإنسان بعمل قلبه كما يكفر بقول لسانه لأن الإيمان قول وعمل واعتقاد فإذا أصبح الخلل موجود في فهم الإيمان يأتي الخلل في فهم الكفر .

٥) رواه البخاري ومسلم صحيح الترغيب والترهيب – (ج ٢ / ص ١٨٢).

كثير من الناس وعامة الناس يظن أن الإيمان هو ما وقر في قلب الإنسان من إثبات ربوبية الله ولو فعل الإنسان من أعمال الكفر والفجور ما فعل !.

وهذا هو كلام المرجئة وهم على طوائف وأقصى الطوائف الذين قالوا إن الإيمان هو عمل القلب ولا علاقة لقول الإنسان ولا لعمله قالوا فإذا وجد في قلب الإنسان إيمان بأن الله هو الخالق فيكفيه ذلك وهذا من الضلال فيلزم من ذلك أن يكون إبليس من أهل الإيمان لأن إبليس يقر في قلبه أن الله هو الخالق ولهذا ينادي الله ربِّ ويعلم أن الله هو المدبر فيسأله أن ينظره بعد أن أغواه ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِين ﴾ (الحجر:٤٠) فأنظره الله .

وكذلك فرعون في قرار قلبه وقومه يعلمون أن الله هو الخالق وأنهم يكابرون ولهذا يقول الله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(النمل:١٤).

كذلك بالنسبة لكفار قريش يعلمون أن الله واحد لكنهم كابروا لما جاءهم النبي ﷺ بالحجج منعهم من الانقياد الكبر وخشية كلام الناس واتهامهم بالضعف.

ومن يزعم أن الإيمان هو ما وقر في القلب فقط فهذا قول المرجئة وهذا لا يقول به أحد من أهل الإسلام وإنما هو قول الضلال من الزنادقة أنهم يرون أن أهل الأرض جميعًا من أهل الإيمان وذلك أنه لا يكاد يوجد أحد ينفي وجود الله تعالى فيلزم من ذلك دخول إبليس والكفار في الإيمان كما في قول الله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام : ٣٣) فالجحود جحود ظاهري لا إنكار باطن لأن التصديق موجود لديهم.

والإيمان بوجود الخالق مع عدم الإيمان بسبل النجاة لا يحقق الإيمان فثمة عباد حجر ووثن وصنم وكوكب هم يعبدون خالق أوصافه لا تنطبق على الخالق الذي بيّنه الله تعالى لعباده فهو فرد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته لا يشاركه ولا يدانيه أحد .

ويستشكل على كثير من الناس أنهم يرون بالعاطفة من ظواهر بعض الناس الإيمان .

ويأتي فريق يقول أن الإيمان (قول واعتقاد) وهذا ليس على قول السلف الصالح (قول وعمل واعتقاد) ولكن هذا الفريق أخف ضلال ممن يقول بالقلب فقط ولكنهم أيضًا على ضلال ويستشكلون كثير من الأعمال والأقوال بإثبات وجود الخالق والتعلق به والإيمان بالكون وتسيره ولكنهم لا يؤمنون بعبودية الله ولا يرون حق الله في التشريع ولا في الصلاة ولا في القضاء والحكم فيكفرون بذلك فهؤلاء كفار ولو وجد في قلبهم ذلك الإيمان .

وقد كان أبو طالب يحوط النبي ﷺ ويدافع عنه ومع ذلك ظهر من قوله ما يفيد التصديق القلبي فهو يصدق بقلبه لكن لم يأت بالعمل الظاهر الذي يبت ذلك التصديق ولهذا جاء في مدحه للنبي ﷺ

والله لن يَصلوا إليكَ بجمعِهِمْ ... حتى أُوَسَّدَ في التراب دَفينا

فاصدَعْ بأمرِك ما عليكَ غَضاضةٌ ... وأبشِرْ بذاكَ ، وقرَّ منهُ عُيونا

ودَعَوْتَني، وزَعمتَ أنك ناصحٌ ... ولقد صدقْتَ وكنتَ ثَمَّ أَمينا

وعَرضْتَ دِيناً قد علمتُ بأنَّهُ ... مِن خيرِ أديـــانِ البريَّة دِينا

لولا المَلامـــةُ أو حِذاري سُبَّةً ... لوجَدْتني سَمحاً بذاك مُبِينا[٦]

ويقول العباس بن عبد المطلب وهو عم النبي ﷺ كما جاء في البخاري قَالَ (قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ فَقَدْ كَانَ يَحُوطُكَ ، وَيَغْضَبُ لَكَ ، قَالَ : " هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ ، قَالَ ابْنُ مَهْدِيٍّ : مِنَ النَّارِ وَلَوْلا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)[٧] .

وهذا إشارة إلى أن القضية ليست قضية عواطف أو التخلق بالأخلاق الحسنة من الصدق والأمانة وعدم الكذب ونفع الناس بالابتكارات الحديثة ونحو ذلك فهذا مما يسيره الله في الخلق فيقدر عباد لنفع عباد آخرين كما يجعل الله ذلك في كثير من مخلوقاته .

والكفر بالله تعالى الذي يخاطب به من جهة الجنة والنار ليس المراد به الكفر بالمادة فهذا من المشاهد وأما المراد به فهو ما أمر الله به بالانقياد .

٦) خزانة الأدب: ٢ / ٧٦، البداية والنهاية: ٣ / ٥٦، شرح نهج البلاغة: ١٤ / ٥٥ كتاب ٩، فتح الباري: ٧ / ١٩٤، ١٩٦، المواهب اللدنية: ١ / ٢٢٣، السيرة الحلبية: ١ / ٢٨٧، ديوان أبي طالب: ص ٤١، السيرة النبوية لزيني دحلان: ١ / ٤٥، أسنى المطالب: ص ١٠.

٧) رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).

والسلف الصالح على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد ، ومن الطوائف من قال إن العمل من الإيمان ولكن شرط كمال لا شرط صحة وهؤلاء يدخلون في شيء من الإرجاء .

والخطأ في تصور ذلك كحال الخطأ في تصور المكفرات فإذا وقع خطأ في معرفة حقيقة الإيمان وقع الخطأ فيما يقابله في حقيقة الكفر .

دائرة التقليد في الإيمان

دائرة التقليد في الإيمان داخلة في دائرة المخالفة وهي ضد الإيمان فكثير من النصارى يقلدون الأحبار والرهبان ولم يسمعوا شيء من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ .

وأما المخالفة فبعض الناس يقلد عالم فيقع في مخالفة ومروق من أمر الله وهذا المروق لا يخرجه من الإسلام كأن يقلد عالم في عبادة وهي بدعة أو يقلده في عمل وهو من المعاصي أو يقلده بترك طاعة من الطاعات فهذا داخل في دائرة المعاصي وزيادة الإيمان ونقصانه .

وحقيقة الإيمان يمكن أن تُشَبَّه بصلاة المغرب فصلاة المغرب ثلاث ركعات وظواهر الأدلة تدل على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد وهذه الثلاث ركعات إذا دخل ناقض على إحدى الثلاث ركعات نقض الصلاة بأكملها .

فالإيمان يزيد وينقص بالطاعات والمخالفات ، وثمة مخالفات ترد على العبادة وهي كحال المخالفات في الصلاة وذلك من الفسق والكذب والغيبة والنميمة والزنا ، فثمة مخالفات في الصلاة لا تبطلها وثمة منهيات تبطل الصلاة .

وإذا كان الإنسان لا يعمل عمل ظاهر على الإطلاق وإنما يقر بقلبه بالعبودية ويشهد بلسانه بالشهادتين فلا يتحقق فيه الإيمان ، فهذا كحال الذي يأتي بركعة أولى وثانية ويقول هذه المغرب ولكنها لا تقبل كصلاة مغرب فمن يقول بالتصديق بالقلب والنطق بالشهادتين دون أدنى عمل فهذا

يعارض الأدلة الواردة في كلام النبي ﷺ أن الإيمان قول وعمل واعتقاد وما أجمع عليه السلف ولهذا جاء عن البخاري كما عند اللالكائي (لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص)[٨] .

العمل الذي يتحقق به الإيمان

أصل الإيمان في ذاته هو توفر الثلاث : الاعتقاد بالقلب وقول اللسان وعمل الجوارح .

والعمل الذي يثبت به الإيمان هو ما اختصت به شريعة النبي ﷺ وليست سائر الأعمال مما فطر عليه الإنسان من أعمال البر كإماطة الأذى عن الطريق وبر الوالدين وصلة الرحم والإحسان إلى الجار وإغاثة الملهوف وتطبيب المحتاج وإعانته وقضاء حاجته وبذل التحية فهذه أعمال بر ولكنها لا تدخل الإنسان في دائرة الإيمان إنما تزيد إيمانه وأما ما يدخل الإنسان في دائرة الإيمان هي أعمال شريعة محمد ﷺ لتدل الأعمال الظاهرة على صدق الباطن أنه آمن بشرعة محمد ﷺ لا غيرها ؛ لأن حتى الملاحدة مفطورين على حب الصدق وتحريم الكذب ونبذ السرقة وإماطة الأذى عن الطريق والأخلاق الحسنة ، وهذا لا يدخل الملاحدة في الإسلام .

وأما ما يتحقق به الإيمان فهو الصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر أعمال الشريعة على خلاف عند العلماء في بعض الأعمال كالصلاة والحج وبعض الجزئيات والخلاف في كفر تاركها بالكلية أو ترك بعضها ، ولهذا جاء (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)[٩] يعنى بالرسالة المحمدية التي اختص بها النبي ﷺ والانقياد له بالتبعية بما اختصت به شريعة الإسلام .

٨) صححه ابن حجر في فتح الباري (١/ ٦٠) عند شرح الحديث الثامن من كتاب الإيمان من صحيح البخاري فقال: (وكذا نقله أبو القاسم اللالكائي في " كتاب السنة " عن الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وأبي عبيد وغيرهم من الأئمة ، وروى بسنده الصحيح عن البخاري.
٩) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم (١٥٣) ١ / ١٣٤ والمصنف في شرح السنة ١ / ١٠٤.

سلامة الإيمان من نواقضه

لابد من تحقق الإيمان ظاهرًا وباطنًا حتى يصدق على الإنسان أنه مؤمن من أهل الإسلام .

وثمة نواقض للإيمان ربما تكون بالانقياد لأحد من المتبوعين أو الانقياد للهوى أو ربما مما يرثه من الأباء والأجداد .

ومنهج أهل السنة والجماعة والسلف الصالح بظواهر الأدلة من الكتاب والسنة أن الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص بالطاعات والمخالفات ، وأما الكفر فيكون بمكفّر من الكتاب والسنة فإذا فعله من القول أو الفعل فقد كفر بالله تعالى .

وزيادة الإيمان بالطاعات والواجبات واجتناب المنهيات كحال المحرمات في الصلاة كبسط الكف ورفع البصر للسماء فهذه من المنهيات لكنها لا تبطل الصلاة وأما ما يبطل الصلاة فهو ما دل عليه الدليل كالانحراف عن القبلة متعمدًا أو كشف عورته متعمدًا أو انتقض الوضوء فتبطل الصلاة.

فإذا فقد ركن من أركان الصلاة بطلت وكذلك إذا بطل ركن من أركان الإيمان بطل الإيمان فلا يكفر الإنسان إلا بما دل عليه الدليل .

مفهوم الإيمان عند الخوارج والمرجئة

الخوارج يكفّرون بالكبيرة ولا يرون أن الإيمان يزيد وينقص فعندهم الإيمان جزء واحد لا ينقص وكذلك المرجئة يجعلونه جزء واحد في القلب وهؤلاء غلاة المرجئة الذين يرون أن الإيمان هو التصديق بالقلب ولا ينقضه إلا التكذيب وأما الأعمال فيقولون أنها من الطاعات ولاشك بمخالفة هذا لظواهر الأدلة .

والخوارج يكفرون بالكبيرة ويستدلون بظواهر الأدلة عن النبي ﷺ كما في (حديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ أَنَّ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتالُهُ كُفْرٌ)[10] وكذلك (ماجاء عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم (اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ: الطعن في النسب، والنياحة على الميت)[11] وغير ذلك مما يستدلون به في غير محله لأن المراد بذلك هو الكفر الأصغر وليس الكفر الأكبر المخرج من الملة وهذه الأدلة مجتزئة من كلام النبي ﷺ .

مراتب الإيمان

ظواهر الأدلة من الكتاب والسنة تستفيض على أن الإيمان يزيد وينقص.

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الْأَنْفَالِ : ٢)

وقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (مَرْيَمَ : ٧٦)

وقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ (الْمُدَّثِّرِ : ٣١)

وقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الْفَتْحِ : ٤).

---

١٠) رواه البخاري ١٣ / ٢٢ في الفتن، وفي الإيمان، ومسلم رقم (٦٤) في الإيمان، والترمذي رقم (٢٦٣٦) في الإيمان ،والنسائي ٧ / ١٢٢ في تحريم الدم.

١١) رواه مسلم مع شرح النووي": (٢ / ٤١٧، ح ١٢١ / ٦٧) ، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة. و"مسند الإمام أحمد": (٢ / ٤٩٦). انظر تخريجه بالتفصيل في الملحق.

وقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آلِ عِمْرَانَ : ١٧٣) .

وقول النبي ﷺ (وما وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)[١٢] وكذلك ما جاء (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)[١٣] وكذلك في قوله ﷺ أن الله سبحانه وتعالى في أول الأمر يأمر الشفعاء فيقول(أخرجوا من كان في قلبه مثقال شعيرة)[١٤] وفي رواية(انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، فأخرجه من النار، من النار، من النار)[١٥] إشارة إلى أن الإيمان يتضاءل حتى يصل إلى مثقال حبة وذرة .

وهذه الذرة هي السلامة من موانع الإيمان وهي المكفرات فإذا وجد مكفر واحد يزيل الإيمان ويبطل عمله ولو أكثر من التقرب ، والمكفرات كثيرة يتكلم عليها العلماء .

والعمل الذي يتحقق به الإيمان على مذهب أهل السنة والجماعة هو العمل الذي يتحقق فيه الثلاث أمور : الاعتقاد والقول والعمل.

والحد الأدنى لهذه الثلاثة : الإقراربالشهادتين باللسان ، والإقرار بوحدانية الله وربوبيته وأسمائه وصفاته بالقلب ، والحد الأدنى من العمل الظاهر والذي اختلف فيه.

فهل يتحقق الإيمان بأي عبادة جاء بها النبي ﷺ أم بعملٍ محدد ؟

منهم من قال أدنى الأعمال الصلاة ويستدلون بجملة من الأدلة في وصف تارك الصلاة بالكفر (سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ)[١٦]، ومنها(قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ)[١٧]، وكذلك في عمل الصحابة كما جاء في حديث (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ الْعُقَيْلِيِّ قَالَ كَانَ

---

١٢) رواه مسلم (١/ ٧٠) .
١٣) رواه مسلم: الإيمان (٤٩) ، والترمذي: الفتن (٢١٧٢) ، والنسائي: الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨) ، وأبو داود: الملاحم (٤٣٤٠) ، وابن ماجه: إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٧٥) والفتن (٤٠١٣) ، وأحمد (٣ / ٢٠,٣ / ٤٩,٣ / ٥٤) .
١٤) اخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٢ / ٤١
١٥) رواه البخاري واللفظ له (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
١٦) رواه مسلم(٨٢).
١٧) رواه الترمذي(٢٦٢١).

أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنْ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ)[١٨] وترك منهم من حمله على الكفر الأصغر ومنهم من حمله على الكفر الأكبر والأظهر هو الكفر الأكبر.

فالإتيان بالصلاة كافٍ في انتفاء الكفر ومن قال بعدم كفر تارك الصلاة كقول بعض الأئمة فإنهم أيضًا يقولون لابد أن يأتي بشيء من العمل الظاهر من شرعة محمد ليتحقق إيمانه فيأتي بالصلاة أو الزكاة أو الصيام دون انقطاع فلابد من الإتيان بشيء راتب يدل على وجود الانقياد والتصديق بالقلب لأن الإيمان ليس هو التصديق القلبي فقط وإلا لآمن فرعون لأنه من جهة الحقيقة يصدق ولكن يجحد في ظاهره ، وأيضًا كفار قريش كما قال الله تعالى عنهم ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام : ٣٣) يعنى أنهم يصدقونك يا محمد ، وكذلك في قوله ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾(النمل :١٤)فذكر أنهم مستيقنين يقينًا حقيقيًا أن ما جاء به موسى هو الحق ولكن هذا التصديق لا يدل على إيمانهم لانتفاء العمل الظاهر .

والإيمان يبدأ من القلب ولكن لا يمكن دوامه إلا بشيء من العمل الظاهر ولهذا يمكن أن يشبه لتقريب المعنى كحال النواة التي نضعها في التربة ثم نسقيها ثم لم تنبت فإذا طال عليها هذا الأمر فلابد أن تكون النواة ميتة وإلا لأنبتت وهو كحال ابتداء الإيمان أول ما يعلم وتدعوه بعد كفر أو إلحاد وتخبره عن رسالة محمد ﷺ فيصل الإيمان إلى القلب ثم يظهر نباته على اللسان ثم يظهر نباته على جوارح الإنسان كحال النواة .

وأما وجود نواة تحت الأرض كاملة ومع سقايتها لا يظهر لها نبات مع كثرة سقيها فلابد أنها ميتة والدعوى كاذبة .

فالإيمان قول وعمل واعتقاد فإذا جاء بأدناه تحقق الإيمان والزيادة شاملة للظاهر والباطن فيزيد الإيمان بالذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والخلق الحسن وغيرها من الطاعات وكذلك العمل الباطن مما يزيد في إيمان الإنسان .

١٨) رواه الترمذي (٢٦٢٢).

أعلى مراتب الإيمان

يزيد الإيمان حتى يصل إلى مرتبة الكمال وقلما يصل إليها أحد وهم الخلص من خلق الله ولهم أوصاف ومراتب ولا شك أن أبابكر دون النبي ﷺ من جهة تمام الإيمان وأن الصحابة دون أبي بكر ومنزلتهم تتباين وإن كانوا يدخلون في منزلة الولاية والصديقية وأنهم أفضل ممن جاء بعدهم ولكن هذه المراتب لابد من معرفة الدرجات بحسب زيادة العمل وبحسب زيادة الظاهر والباطن .

والزيادة في الإيمان ربما تكون في وجل القلب والخوف ومحبة الله والتفكر في الكون شريطة ألا يتخلى عن العمل الظاهر .

وكلما زاد الإنسان مرتبة زاد إيمانًا وكان من أهل الولاية والقرب من الله عز وجل .

أضعف مراتب الإيمان

يقول النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)[١٩] فالإنكار يكون باليد ثم باللسان ببيان هذا الشر من خذلان المسلمين ونصرتهم بالقول قدر الوسع والإمكان ثم ينكر بالقلب ، والقلب إذاوصل إلى حد أنه يرأى المنكر لا يراه منكرًا ويرى الحق لا يراه حقًا فإنه لا يوجد ثمة إيمان ، وإذا أنكر المنكر بقلبه فهذا أضعف مراتب الإيمان وإذ لم يجد في قلبه إنكار لهذا المنكر فذاك زوال الإيمان عافانا الله .

١٩) سبق تخريجه : انظر (١٣) .

خروج الخوارج على الحاكم

جاء وصف الخوارج في كلام السلف أنهم الخارجين بالسيف على الحاكم ويقيدون ذلك بالحاكم المسلم.

وأما من خرج على حاكم ليس بمسلم من حكام الكفار فهو على حالين :

١) عند القدرة على الخروج على الحاكم آكد العلماء الخروج عليه أو ربما أوجبوه أو جوّزه في غلبة الظن كما ينظر في التاريخ بحسب ما يتسبب فيه الخروج من الفتن.

٢) عند عدم القدرة على الخروج على الحاكم الكافر فلا يجوز الخروج عليه.

والشريعة حينما تأمر أحد بالسكون وعدم الخروج على الحاكم سواء كان كافرًا أو كان مسلمًا فالشريعة تجيز الخروج على الحاكم الكافر عند القدرة عليه ولكن عند عدم القدرة عليه فإن الأصول تمنع من الخروج عليه لأن زوال الشر ربما يكون باستئصال شأفة الناس وعدم تحقق التوحيد في ذلك فيقال بالمقصد لا يقال بالذات .

وأما الحاكم المسلم فيحُرم الخروج عليه على قول عامة السلف وهو قول جماعة من المحققين من أهل العلم وعلى خلاف يسير في هذه المسألة .

تعاظم الأعمال

التعليق على حديث" أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ ":

جاء عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، قَالَ (قَالَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأَصْحَابِهِ : يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ ، لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ ، قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : خَمْسِينَ مِنَّا ؟ ، قَالَ : خَمْسِينَ مِنْكُمْ . حَتَّى أَعَادَهَا عَلَيْهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ)[٢٠] .

هذا الحديث جاء من طرق متعددة منهم من يُحسِّنه بمجموع الطرق كابن حجر وابن كثير وابن الجوزي وغيره والمراد هو أجر الخمسين ، وقوله منكم المراد به أن الله قد جعل عوضًا للأمم المتأخرة وذلك لضعف الدلائل والشواهد الظاهرة وقصورها عن السابقين ;فالسابقون شهدوا النبي ﷺ والمعجزات والبينات وكان لديهم آلة يدركون منها حقيقة الإعجاز ومن هذه الآلات اللغة العربية والفصاحة فيدركون الإعجاز في القرآن الكريم وبيانه والانقياد له هو انقياد عن يقين .

وأما المتأخرون ضعفوا من جهة اللغة فضعفت الدلائل والبينات لديهم لهذا جعل الله تعالى العمل القليل كثير عند الله عز وجل لأنه يصدر عن شيء من تصديق في خضم هذه الفتن التي تطرأ على المتأخرين .

وأما بالنسبة لحقيقة المضاعفة في هذا الحديث فالمضاعفة في العمل الصالح ترتبط بالظاهر والباطن وذلك أن العمل إذا فعله الإنسان في ظاهر أمره ثم تضمن اعتقاد وإقبال وإخلاص وصدق لله عز وجل كان العمل القليل أعظم عند الله من عمل كثير من قلب غافل .

كذلك إذا فعل الإنسان ذنب كبير وهو وجل وخائف من عقوبة الله تعالى عليه فإن الذنب الكبير يضمحل ويصغر والأدلة على ذلك كثيرة منها ما جاء (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركي يلهث، قال: كاد يقتله العطش – فنزعت خفها

٢٠) أخرج أبو داود في السنن (١٢٣/٤) .

فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك)[٢١] فالله غفر للمرأة بسقاية الكلب وهو من البهائم النجسة في الإسلام ودلت الأدلة على ذلك وحتى من اقتنى الكلب ينقص من أجل ذلك كل يوم قيراط ومع ذلك الأثم إلا أن الله تعالى غفر لهذه المرأة بسقاية الكلب وهذه المرأة لم تكن زانية فقط وإنما كانت باغية يعني تمتهن الزنى !.

والله سبحانه بيّن أن العمل الصالح يكفر العمل الباطل ، قال تعالى﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ (هود :١١٤) ولكن إذا صارت السئية كبيرة فلا تذهبها الحسنة اليسيره ففي قول الإنسان سبحان الله وغيرها من التسبيح لا يكفر الله بها الذنوب والكبائر كالقتل والربا ونحو ذلك إلا إذا اقترن مع التسبيح تعظيم شديد لله تعالى ؛ لهذا عمل القلب له أثر على العمل الظاهر فيضاعفه ويعظمه .

وكذلك في مسائل المحرمات فالمحرم ولو كان صغيرًا إذا فعل بقلب غير مكترث وليس بخائف فيعظم عند الله تعالى ، في حين الكبيرة تضمحل إذا فعلها الإنسان كما في حديث حبس الهرة وحديث الرجل الذي لم يعمل خير قط وهما في الصحيح .

٢١) صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، (٦/ ٤١٤)، رقم (٣٣٢١).